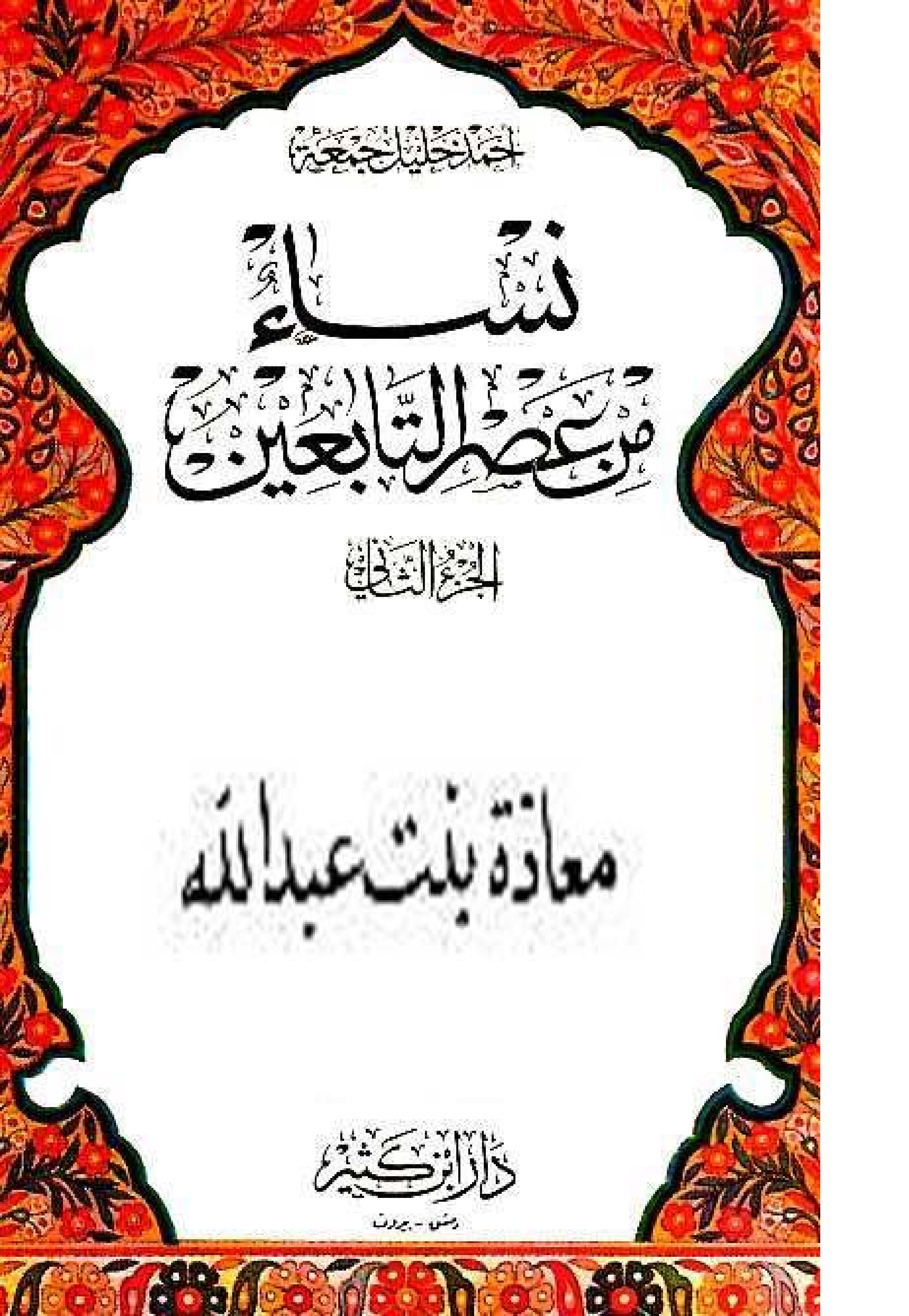

أحمد خليل جمعة
نساء من عصر التابعين
الجزء الثاني
معاذة بنت عبد الله
دار ابن كثير
دمشق - بيروت

(٣)

معاذة بنت عبد الله

• قال يحيى بن معين :

معاذة : ثقة حُجّة .

• عابدة ، زاهدة ، فقيهة ، لها أقوال مشهورة ، صابرة ، شاكرة لله عز وجل .

مُعَاذَةُ بِنْتُ عَبْدِ اللهِ العَدَوِيّة

مُناجاةٌ :

* « يا نفس ، النّومُ أمامك ، لو قدمتِ لطالت رقدتك في القبر على حسرة أو سرور » .

بمثل هذه العبارة ، كانت معاذة بنت عبد الله العدويّة البصريّة أمّ الصهباء[1] ، تخاطب نفسها إذا ما غلبها النّوم وهي غارقةٌ في عبادتها ومناجاتها لله عزّ وجلّ .

* كانت معاذة من النّساء التّابعيات ذواتِ الفضل والمكانة ، نشأت قريبةً من ينابيع الصّحابة الكرام ، تنهلُ من معين عِلْمِهم الصّافي ؛ الذي أخذوه عن رسول الله ﷺ .

* وقد تخرّجت معاذة من مدرسة أمّ المؤمنين عائشة وعليّ بن أبي طالب وهشام بن عامر ــ رضي الله عنهم ــ ، حيث رأتهم وروت عنهم .

* كما حدّث عنها رؤوس العلم والزّهد في عصرها منهم : أبو قِلابة الجرمي ، وإسحاق بن سويد ، وأيوب السّختياني[2] وآخرون .

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥٠٨/٤) ، وطبقات الشعراني (٦٥/١) ، والأعلام (٢٥٩/٧) .

(٢) أيوب بن أبي تميمة كيسان السّختياني ، أبو بكر التّابعيّ البصريّ ، ثقة ثبتٌ حجةٌ ، =

وإذا أردت أنْ تعرفَ مقدار مكانتها في عالم الحديث والعلم ، فاعلم أنّ حديثها محتجٌّ به في الصّحاح كلّها ، وقد وثّقها شيخ المحدثين يحيى بن معين ـ رحمه الله ـ .

* وقد بلغتْ معاذةُ ـ رحمها الله ـ مبلغاً عظيماً في التّفقُّهِ بالدِّين ، والنُّسك والعبادة ، ونهلت من معينِ القرآن الكريم والحديث الشّريف شيئاً مباركاً ، جعل الحكمة تجري على لسانها ، وتنبعث من قلبها لتحتلَّ قلوبَ الآخرين وتستقرّ في نفوسهم ، وتصقل صَدأ قلوبهم .

* وكانت ـ رحمها الله ـ مولعة بقرآن الفجر الذي تشهده الملائكة ، إذ تصبح وتمسي على قراءة القرآن الكريم وترتيله ، وقلبها يلهجُ بذكر الله عزَّ وجلَّ ، ولم يكنْ يشغَلُها عن هذا أيّ شيء حتى في يوم زفافها .

* * *

زَوَاجُهَا :

* زوجُ معاذة العدويّة هو صِلَةُ بنُ أشْيَم ، أبو الصّهباء العدويّ البصريّ ، الزّاهد العابد ، السّيّد القدوة ، التّابعيّ الجليل ، صاحب الكراماتِ الثّابتةِ . وكلا الزّوجين بَحْرٌ في العِلْمِ والفقه ، وعلمٌ في الورع والزّهد ، وكان لزواجها قصة تؤنس النّفوس ، وتجلو القلوب لما فيها من

= سيّد فقهاء عصره ، ولد سنة (٦٦ هـ) ، وكان من النّساك الزّهاد ، ومن كبار الفقهاء العباد ، ومن حفاظ الحديث الشّريف ، روي عنه نحو (٨٠٠ حديث) ، توفي سنة (١٣١ هـ) وله (٦٥ سنة) ـ رحمه الله تعالى ـ .
(تقريب التهذيب : ٨٩/١) ، و (الأعلام : ٣٨/٢) .

طِيْبِ الحديث الذي ظلَّ النَّاس ـ عصر ذاك ـ يتداولونه فيا بينهم حيناً من الدّهر ، ومن ثَمَّ نقلوه إلى غيرهم ليبقى خالداً إلى ما شاء الله سبحانه وتعالى .

فلنشهد أحداث هذا الزّواج المبارك ، لهذين العَلَمَيْنِ الكريمين .

* لما كان يوم زفاف معاذة العدويّة ، وحينا أُهديت إلى زوجها صِلَة بن أشيم ، جاء ابنُ أخي صلة ، فمضى به وأدخله الحمّام ، ثم ألبسه أجمل الثّياب ، وأدخله على معاذةَ في بيتٍ يتضوع بالطّيْبِ ، وتنبعثُ منه أجمل روائح البخور والعطور ، وقد هُيّيء البيت كأجملِ ما تكون البيوت .

* ولما صار الزّوجان معاً في البيت ، ألقى صلة السَّلام على معاذةَ ، ثم قام يصلي ، فقامت معه فصلَّت أيضاً ، واستغرقا في الصّلاة ، فلم يزالا يصليان ويصليان حتى وافاهما عمود الفجر ، وتنفّسَ الصُّبح ، ونسيا أنّهما في ليلة الزّواج .

* وفي الصَّباح أتاه ابن أخيه يتفقّدُ أحواله ، فعلم أنّه ظلَّ يُصلي حتى أسفر الصُّبح ، فقال لعمّه : أي عمّ ، أُهديتْ إليك ابنة عمك الليلة فقمتَ تصلي وتركتها ؟ .

فقال صلة : يا بن أخي ، إنّك أدخلتني أمس بيتاً أذكرتني به النَّار ، ثم أدخلتني بيتاً أذكرتني به الجنّة ، فما زالت فكرتي فيهما حتى أصبحتُ .

---

(١) عن صفة الصفوة (١٤٤/٣ و ١٤٥) بتصرف ، وانظر ربيع الأبرار (٢٨٥/٥) ، والبداية والنهاية (١٨/٩) .

* على مثل هذا النهج من العبادة ، تابعتْ معاذةُ وزوجها حياتهما في طلب مرضاة الله عزَّ وجلَّ ، وقد رسمت معاذة صورةً حيّة عن عبادة زوجها فقالت : كان أبو الصّهباء يصلي حتى ما يستطيع أنْ يأتي فراشه إلا زحفاً[1] .

* وحدث ابن شوذب قال : قالت معاذة العدويّة : ما كان صلةُ يجيء من مسجدِ بيته إلى فراشه إلا حبواً ، يقوم حتى ما يقرّ في الصّلاة[2] .

* وقد وصفته أيضاً ، ووصفت أصحابه الذين تعاقدوا على محبّة الله عزَّ وجلَّ ، فقالت : كان صلةُ وأصحابه إذا التقوا عانق بعضهم بعضاً .

* وكانت ـ رحمها الله ـ تأتسي بزوجها في عبادته حتى غدت إحدى النّساء اللاتي يُضرب المثل بهن في العبادة .

* * *

مِنْ فَرَائِدِ أَقْوالِهَا :

* المؤمن المخلصُ لله عزَّ وجلَّ منْ أطيب النّاسِ عيشاً ، وأنعمهم بالاً ، وأشرحهم صدراً ، وأسرّهم قلباً ، وقد كانت معاذة ـ رحمها الله ـ من المؤمنات الورعات ، ومن النّاسكات المتزهدات إذ تحيي الليل كلّه في العبادة ، فجرتِ الحكمةُ على لسانها جريان السّلسبيل .

---

(١) الطبقات (١٣٦/٧) ، وسير أعلام النبلاء (٤٩٧/٣) .

(٢) المعرفة والتاريخ للبسوي (٧٩/٢) .

* وقد أُثرت عنها أقوالٌ تشير إلى فصاحتها وبلاغتها وتمكنها من ناصية الكلام ، كما تدلُّ على مدى صلتها الوثيقة بالله سبحانه وتعالى ، فمن أقوالها :

عجبتُ لعين تنام ؛ وقد علمت طول الرّقاد في ظُلَمِ القبور .

* وكانت أقوالها لا تخلو من النّصيحة والتّحذير من الدّنيا ، فقد قالت لامرأةٍ أرضعتها :

يا بنية ، كوني من لقاء اللهِ عزّ وجلّ على حَذَرٍ ورجاء ، فإنّي رأيتُ الرّاجي له محقوقاً بحسن الزّلفى لديه يوم يلقاه ؛ ورأيت الخائف له مؤملاً للأمان يوم يقوم النّاس لربِّ العالمين .

* وفي تحذيرها من الدّنيا وعدم الغرور والرّكون إليها تقول : صحبتُ الدنيا سبعين سنة ، فما رأيتُ فيها قرّة عينٍ قطّ .

* * *

عِبَادَتُهَا وَصَلاتُهَا :

* كانت معاذةُ قد وهبت نفسها للعبادة والصّلاة ، فلا تكاد تخلو إلى نفسها إلا وهي على موعدٍ مع الصّلاة ، فقد كانت تحيي الليل كلّه بالصّلاة والذّكر والتّسبيح ، وكانت تصلي في كلّ يوم وليلة ستمئة ركعة ، وتقرأُ من القرآن كلّ ليلة(١) ، فإذا جاء النّهار قالت :

---

(١) وصف الله عزّ وجلّ الزّوجات الصّالحات فقال : ﴿ فالصّالحاتُ قانتاتٌ حافظاتٌ للغيب بما حفظَ اللهُ ... ﴾ [النساء : ٣٤] .

فالقانتات : من الطّائعات . =

هذا يومي الذي أموتُ فيه . فما تنام .

فإذا جاء الليل قالت :

هذه ليلتي التي أموتُ فيها . فلا تنام حتى تصبح ؛ فإذا غلبها النّوم ، قامت فجالت في الدّار تعاتبُ نفسها ، ثم لا تزال تدور إلى الصّباح تخاف الموتَ على غَفْلة ونوم(١) .

* وكان إذا هجم الشّتاء ببردهِ على النّاس ، تعمد معاذة إلى لبس الثّياب الرّقاق حتى يمنعها البرد من النّوم ، ولا تتكاسل عن العبادة والمناجاة ، وكان إلى جانبها زوجها يجتهد في عبادته أيضاً حتى ضُرِب المثل بهما ، قال أبو السّوار العدويّ : بنو عديّ أشد أهل هذه البلدة ـ البصرة ـ اجتهاداً ، هذا أبو الصّهباء لا ينام ليله ولا يفطر نهاره ، وهذه امرأته معاذة ابنة عبد الله لم ترفعْ رأسها إلى السّماء أربعين عاماً .

* وكانت معاذة مع عبادتها ونسكها ، فقيهة عالمة ، قال عنها يحيى بن معين : معاذة ثقة حجة ، وذكرها ابن حبّان في الثّقات وأثنى عليها . أضفْ إلى ذلك أنّ حديثها مروي في الكُتُبِ السّتة محتجٌّ به .

* * *

صَبْرُهَا وشُكْرُهَا للهِ :

* في سَنَةِ ثنتين وستين للهجرة ، استشهد زوج معاذة وابنها في

= والحافظات للغيب : أي اللاتي يحفظن غيبة أزواجهن ، فلا يخنّه في نفس أو مال ، وهذا أسمى ما تكون عليه المرأة ، وكانت معاذة العدوية من هذا الصنف ـ رحمها الله ـ .

سِجِسْتَان في قتال التّرك ، ولما وصلها الخبر ، لم تلطمْ وجهاً ، ولم تمزّق ثوباً ، وإنّما صبرت واسترجعت[1] ، واجتمع النّساء عندها للتّعزية ، ولكنّ معاذةَ ـ رحمها الله ـ قالت لهن :

مرحباً بكنّ ، إنْ كنتنَّ جئتنَّ للهنَاء ، وإن كنتنّ جئتنّ لغيرِ ذلك فارجعن[2] .

* وعجب النّسوة من صَبْر معاذة ، وخرجن وهنّ يتحدثنّ عما آتاها الله عزَّ وجلَّ من حُسْن الصَّبر ، وزادها ذلك الموقف في أعينهنَّ مكانة ورِفْعَةً ، فأكرِمْ بها وبموقفها ! .

* وحدثت أمُّ الأسود بنت زيد العدويّة ـ وكانت معاذة قد أرضعتها ـ فقالت :

قالت لي معاذة لما قُتل أبو الصَّهباء وقُتل ولدها :

والله يا بنية ما محبتي للبقاء في الدّنيا للذيذ عيش ، ولا لروْحِ نسيم ، ولكن واللهِ ما أحبُّ البقاء إلا لأتقرب إلى ربّي عزَّ وجلَّ بالوسائل ، لعلّه يجمع بيني وبين أبي الصَّهباء وابنه في الجنّةِ[3] .

* وطبّقَتْ معاذة هذا القول عملياً ، فلم تكن تمرُّ عليها ليلة إلا وهي تدعو ربّهـا خوفاً وطمعاً ترجو لقاءه وتأمل رحمته ، ومنذ أن استشهد

---

(١) « استرجعت » : قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون .

(٢) الطبقات (١٣٧/٧) ، والبداية والنهاية (١٨/٩) ، وسير أعلام النبلاء (٥٠٩/٤) .

(٣) مصارع العشاق (٢٠٨/١) .

زوجها لم تتوسدْ فراشاً حتى ماتت ، خيفة أنْ تشعر بلينِ الفراش فتنسى ما عاهدت الله عليه من حسن الرجاء .

* * *

كَرَامَةٌ بَاهِرَةٌ لمُعَاذَةَ :

* في كتابه « تهذيب التهذيب » أوردَ ابنُ حجر ـ رحمه الله ـ كرامة باهرة لمعاذة ـ رحمها الله ـ تشير إلى مكانتها في عالم العبادة ، فذكر أنَّ رجلاً من أهل البصرة قال :

أتيتُ معاذة فقالتْ : إنّي اشتكيتُ بطني ، ـ وكان قد وُصِفَ لي نبيذ الجرّ ـ فأتيتُها منه بقدح فوضعته فقالت :

اللهم إنْ كنْتَ تعلم أنَّ عائشةَ ـ أمّ المؤمنين ـ حدثتني أنّ النبيَّ ﷺ نهى عن نبيذ الجرِ فاكفنيه بما شئتَ .

قال : فانكفأ القدحُ وأهريق ما فيه ، وأذهبَ الله تعالى ما كان بها .

* * *

وَفَاتُهَا :

* عاشتْ معاذة بعد وفاة زوجها أكثر من عشرين سنة ، وهي في كلّ يوم يمر عليها تستعدُ للقاء اللهِ عزّ وجلّ ، وتأمل أنْ يجمعَها بزوجها وابنه في رحمتهِ .

* وقد رُوي أنّ معاذة لما حضرها الموت بكتْ ثم ضحكت فقيل

لها : ممّ البكاء ، وممّ الضّحك ؟! .

قالت : أمّا البكاء الذي رأيتم فإنّي ذكرتُ مفارقة الصّيام والصّلاة والذّكْرِ فكان البكاء لذلك .

وأمّا التّبسّـــم والضّحك فإنّي نظرتُ إلى أبي الصّهبـاء قد أقبل في صحن الدّار ، وعليه حلّتانِ خضراوان وهو في نَفَرٍ ، والله ما رأيتُ لهم في الدّنيا شبهاً ، فضحكتُ إليه ، ولا أراني بعد ذلك أدرك فرضاً .

فكان ذلك ، وتوفيت قبل أن يدخلَ وقت الصّلاة .

* وكانت وفاة معاذة سنة (٨٣ هـ)(١) .

* وبذلك طُويت صفحة امرأة من النّســاء التّابعيات الصّالحات القانتات العابدات ، غير أنّ سيرتها لم يطوِهَا التّاريخ بل نشر فضائلها لتكون قدوة للنّساء .

* رحم الله معاذةَ العدويّة ، وأعاذها من النّار ، وجزاها خير الجزاء ، وألحقهـا بالصّـالحين ، وصدق الله إذْ يقول : ﴿ ولمن خاف مقام ربّه جنتان ﴾ [الرحمن : ٤٦] .

* * *

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/٥٠٩) ، والأعلام (٧/٢٥٩) ، ومصـارع العشـاق (١/٢٠٩) وقيل توفيت سنة (١٠١ هـ) ـ رحمها الله ـ .